تحديد النسل

ومشكلة السكان

الدكتور شريف عسيران

تستمد فكرة تحديد النسل اصلها من مفكري اليونان الاقدمين فقد ذكر فلوطوخس مؤرخ العظماء الاقدمين ان ليكرغوس مشترع سبارطة قضى بقتل الاطفال الضعاف البنية رغبة منهُ في تنشئة شعب قوي . وادرك افلاطون وارسطو طاليس الخطر الناجم عن كثرة النوالد وخصوصاً ماكان منها في الاسر الضعيفة فاقترحا اساليب متطرفة مختلفة لضبطه[1] ويظهر ان الرجال عند الشعوب البدائية لم يهتموا بتحديد النسل بل كانوا على الضد من ذلك يميلون الى كثرته ولكنهم يفضلون الذكور على الأناث. فالمرأة هي التي ابتدعت تحديد النسل لتخلص من عناء تربية الاولاد وتحتفظ بنضارة صباها وتخفي عار علاقاتها خارج الزواج فراراً من الموت وغير ذلك من الدوافع . فكانت ترفض الرجل في اثناء الرضاع الذي يمتد احياناً الى العشر السنوات . واكثر الشعوب البدائية كانت تقتل الوليد اذا كان مشوهاً او مريضاً او لقيطاً او اذا ماتت امهُ في اثناء الولادة . وكثير من القبائل كانت تقتل الأطفال الذين يولدون في اوقات نحس . وكانت بعض القبائل تحسب ولادة تشين ضرباً من الزنا اذ لا يعقل في عرفها ان يكون نفس الأب والداً لولدين في وقت واحد فلا بد من قتل احدهما وكان الاليوتيزيون (Aliponos) لايحتفظون الا بصبي وبنت ويقضون على بقية النسل وعند ماكانت المجاعات تهدد بعض القبائل كانوا يخنقون المواليد الجدد وبعضهم يأكلهم [2]

وقد وصف كتاب عربي في القرن السادس عشر من العصور الوسطى بعض الطرق الكيمياوية لتحديد النسل . وذكر فالوبيس المشرح الايطالي الشهير بعض الاغلفة المصنوعة من الكتان الدقيق او امعاء الحمل . وظهر اول نص باللغة الانكليزية سنة ١٨٢٣ ونسب الى

---

(١) المقتطف م ٧٦ ص ١٣٢ وراجع ايضاً المقتطف م ٩٢ ص ٣٤

(٢) قصة الحضارة لديورانت The Story or Civilization. By Will Durant p. 49-50 1935

وأعقبه Francis Place كتاب كل امرأة Carlyle's Every Women's Book[1] لكارليل
وكتبت الملكة فكتوريا الى خالها ملك البلجيكيين سنة ١٨٤١ البذة الآتية :

أظن يا خالي العزيز انك لا ترغب لي في ان اكون والدة اسرة كثيرة العدد . وانك تدرك معي سوء حالة الاسرة الكبيرة كثيراً وبلادنا بنوع خاص بصرف النظر عما اتحمله شخصياً من المشاق . ان الرجال لا يشعرون ابداً او نادراً ما يشعرون مع المرأة او يقدرون المشاق التي تعانيها من تعدد الاولاد[2]

﴿ اصل اللفظة ﴾ المرجح ان اول من استنبط هذه اللفظة Margaret Sanger سنة ١٩١٤ وهي ممرضة اميركية رأت ما يقاسيه النساء من الآلام والتعس في تربية اولادهن وادركت الخطر الناجم عن كثرة النسل فأخذت تدعو الى مبدأ تحديده وتعمل على نشره خاصة بين الطبقات الفقيرة التي لا تساعدها احوالها الاقتصادية على اعالة اولاد كثيرين وسردت في كتابها « كفاحي في تحديد النسل » قصة امرأة عانت ما عانت من كثرة الاولاد وماتت ضحية الجهل بتعمدها الاسقاط بطرق غير فنية وكانت قضايا كهذه حافزاً لها ومسوغاً لدعايتها لتحديد النسل . وقد اضطهدت وحوكمت في سبيل مبدئها وصودرت مؤلفاتها ولا سيما نشرتها لنساء اسوام التي موضوعها « ثورة المرأة » وسجنت شهراً سنة ١٩١٧ لفتحها مستوصفاً لتحديد النسل . وتجولت في اكثرية وفرنسا وانحاء اوروبا فتبشير بمبدئها ولاقت دعايتها هوى في نفوس الكثيرين وفوراً من غيرهم ولا سيما طبقة الاكليروس الذين قاوموا هذه الفكرة بمختلف الاساليب

﴿ انصار تحديد النسل ﴾ طبعت سنة ١٨٦٧ مطبعة جريدة النكر باميركا طبعة جديدة من كتاب ثمار الفلسفة تأليف الدكتور نولتن Dr. Knowlton من بوسطن الذي الفه سنة ١٨٣٣ وذكر فيه طرق تحديد النسل المعروفة في ذلك الوقت فصادرته الحكومة وحاكمت الناشر والبائع تحمس مصلحان اجتماعيان لهذه الحادثة وهما Annie Besant و Charlies Bradlaugh دفاعاً عن حرية الرأي وتوعدا الشرطة بطبع الكتاب وتوزيعه مجاناً فصادرته السلطة واحالت الناشر الى المحكمة وقد دافع برادلو دفاعاً بليغاً عن هذا الكتاب[3] ومن اشهر انصار هذه الحركة الدكتور جورج درزديل Dr. George Drysdale فقد نشر سنة ١٨٥٤ كتابه « مبادىء علم الاجتماع » وبسط فيه نظرية منع الحمل من الوجهة الاقتصادية والفلسفية وصار فيما بعد رئيساً للعصبة المالتوسية التي بدأت عملها المفيد في ٢٦ يوليو سنة ١٨٧٧ وصارت اني بيزانت كاتمة سرها

---

(١) The Twilight of Parenthood, By Enid, Charles 1934, p. 174 شفق الابوة للدكتورة انيد تشارلس

(٢) The Eugenic Review, April, 1935, p. 16

(٣) تاريخ الاخلاق الحديثة History of Modern Morals, by Max Hodann 1937, p. 180

وبيع في السنة التي حوكم فيها برادلو ١٨٥٠٠٠ نسخة من كتاب « ثمار الفلسفة » و ١٧٥٠٠٠ نسخة من كتاب آني بيزانت « شريعة السكان »

وقد نطق الروائي الشهير ولز بالكلمات التالية في عشاء العيد السنوي سنة ١٩٣٧ :— « تشرهذه المحاكمة تاريخاً في حياة البشر . وترى الناس لأول مرة يسيطرون على مقدراتهم الاحيائية وقد مضى خمسون سنة على تأسيس عصبتنا التي بدأت أعظم انقلاب في كل تاريخ البشر إذ هذه أول مرة يتخلص النوع الانساني فيها من ضغط السكان أي تنازع البقاء الذي كان متسلطاً منذ وجوده على كياننا الاحيائي[1] »

(النظرية الملثوسية) ومن أبطال هذه الحركة الذين يشار اليهم بالبنان ملثوس وقد ترك اكبر أثر يذكر لأنه لم يتسلح بسلاح العاطفة شأن الذين سبقوه بل بنى نظريته على أسس علمية معتبرة في عصره وتعرف هذه النظرية باسمه «النظرية الملثوسية» . وقد ساعده على نشر مبادئه في ذلك الوقت فقر الطبقة العاملة فقد كتب رسالته في أثناء حروب نابليون التي كانت سبباً في فقر الناس المدقع وعاملاً في قبولهم هذا المذهب [2]

وجدير بنا ان نلم قليلا بهذه الشخصية البارزة التي كانت المحرك الأكبر لتحديد النسل. الأب ملثوس واسمه الكامل Robert Thomas Malthus اقتصادي انكليزي من المعروفين في عصره ولد سنة ١٧٦٦ وتوفي سنة ١٨٣٤ وأبوه دانيال ملثوس من أصدقاء روسو الفرنسي الشهير. وقد نشر ملثوس أول رسالة عن مبادىء السكان سنة ١٧٩٨ وأعاد طبعها مراراً وظهرت آخر طبعة وهي السادسة سنة ١٨٢٦ وكانت هذه الرسالة نتيجة مباحثاته مع والده الذي كان موافقاً لرأيه وهو الذي حثه على اخراج فكرته الى حيز العمل. وخلاصة نظريته أنه اذا استمر السكان يزدادون عدداً فتكون زيادتهم بنسبة هندسية دينا وسائط العيش تزداد بنسبة حسابية وان هناك حواجز تحول دون تجاوز السكان هذه النسبة وهي الحروب والمجاعات والأوبئة والفقر وتدهور الآداب. وقد حمل حملة شعواء على القوانين الانكليزية المرعية في ذلك العهد وما تنفقه من المنح لحماية الاسر زاعماً ان زيادة السكان وبال على الامة وقد احدثت رسالته ضجة في مختلف الاوساط وانبرى كثيرون للرد عليه وتفنيد آرائه . وقد اضاف الى مذهبه فيما بعد عاملاً جديداً سماه الرادع الادبي Moral Restraint وعنى بذلك تأخير سن الزواج بغية تحديد النسل [3]

(١) تاريخ الاخلاق الحديثة The History of Modern Morals, p. 183
(٢) نظرية السكان لكار صوندرز Theory of Population, Carr-Saunders, 1931, p. 23
(٣) ملخص عن دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة تحت عنوان Birth-Control

ومن رأي East ان مالثوس لم يبتدع هذه الفكرة بل استمدها من كتابات بنجامين فرانكلين وهيوم وولسن وطونسند (١)

﴿ تحددو المالثوسية ﴾ وظهرت بعده فئة من العلماء اطلق عليهم « تحددو مالثوسية » امثال درزديل وزوجه ومنهم هافلوك اليس الشهير وولز وسنري وغيرهم . ومن شهيرات المتحمسات لهذا المذهب والعاملين به في هذا العصر الدكتورة الانكليزية الشهيرة ماري ستوبس ولها مؤلفات كثيرة في هذا الموضوع آخرها حسبما اعلم « تحديد النسل اليوم » طبع سنة ١٩٣٤ وقد انشأت جمعية في انكلترا لهذه الغاية سنة ١٩٢١ وفتحت عيادات استشارية لارشاد الامهات وهو نظام منتشر اليوم في اكثر انحاء اوروبا واميركا ويمارس علناً

﴿ ردُّ نظرية مالثوس ﴾ نظر مالثوس الى العالم نظرة جمود وحسبهُ كياناً لا يتغير ولا يتطور وفاتهُ ان البشر يتطورون في حياتهم العقلية وجميع مظاهرهم الاجتماعية بغذائهم ولباسهم وقوانينهم وتقاليدهم ومقدرتهم في التغلب على المحيط واخضاعه لراحتهم وسعادتهم وأبلغ من رد هذه النظرية بالطرق العلمية الصحيحة الدكتورة بالفسفة إنيد تشارلس الانكليزية Enid Charles في كتابها « غسق الابوة » The Twilight of Parenthood الذي قال عنهُ جوليان هاكسلي الشهير «ان هذا الكتاب من اثبت الكتب عن شؤون السكان منذ افكار صوندرز Carr Saunders كتابه «مشكلة السكان» فعلى كل من يهتم بالقضايا الاجتماعية والسياسية ان يطالعهُ » . وقد اقتطفنا كثيراً من آرائها الناضجة بهذا الصدد لانها مبنية على البحث المجرد عن العاطفة وعلى المنطق الصحيح . وقد وصفت هذه العالمة المقدرة نظرية مالثوس بانها ملاذ فقط لمؤرخ اخطاء البشر

الانسان سيد المخلوقات واكثرها سيطرة على المحيط وقد حبتهُ الطبيعة مواهب لم يتمتع بها غيره فهو الوحيد بين الاحياء الذي يتمكن من استعمال الآلات والاستعانة بها في السيطرة على المحيط الى مايؤمن لحفظهِ وسعادته فتمكن ان يقي نفسهُ قارس البرد ولاهب الحر ببناء البيوت وارتداء الثياب واستخدم لهذه الغايات غيره من انواع المخلوقات النباتية والحيوانية وسخرها لحفظ حياته وراحته فبنى من الاحجار سكناً واتخذ من الخراج وتوداً وصنع من الياف النبات وصوف الحيوانات وجلودها لباساً وجعل انواع النباتات والحيوانات مصدراً لغذائهِ فنشأت العلاقة بين الانسان وغيره من المخلوقات الحية . فالانسان يعيش على النبات والحيوان ويعيش الحيوان على النباتات وغيره من الحيوانات . والنبات يعيش على المواد النيتروجينية غير العضوية التي في الهواء والتراب التي تتحول بفعل البكتيريا الى مواد عضوية وعلى المواد

(١) East, Mankind at the Cross Roads, 1926 p. 46

العضوية المتولدة من تفسخ الحيوانات بفعل (البكتيريا) وعيش الجراثيم على اشلاء الحيوانات والنباتات فهذه العلاقة المتبادلة في الغذاء والتناسل والتنازع والانتشار وغير ذلك بين الانسان والحيوان والنبات هي ما يعبر عنهُ بالمساكنة [1] Ecology . واول من تنبأ عن هذه العلاقة الروائي الانكليزي الشهير ولز

تحكم الانسان بالحيوانات والنباتات وجعلها تكثر وتقل وفقاً لرغائبه وكان يعول على الخيل والجمال والحمير والبقر في قضاء حاجاته وكانت الخيل من الوسائط الاولية في اخراج قوى الحيلة (الميكانيكية) لحمل الاحمال وجر الاثقال والحرث والري وما اشبه . ولما اكتشف البخار واهتدى الى الكهرباء اخذ يستغني عن الخيل وغيرها فقل عددها اليوم بالقياس الى الأمس وليس من المستبعد ان تصبح اثراً بعد عين في خلال قرن او تنقرض كما انقرض غيرها من الحيوانات . كان الناس يستضيئون منذ قرن بانواع الشحوم والزيوت فاعتاضوا بمصادرها ولكنهم استعاضوا عنها اليوم بالغازات التي يستخرجونها من باطن الارض والكهرباء التي يستخرون لتوليدها القوى الطبيعية كالماء والمعادن الكيماوية . وبالامس كانوا يستخرجون الحرير من دود الحرير فاستعاضوا عنهُ اليوم بالحرير الصناعي وكذلك المطاط والنيلة وغيرها من المواد الصناعية التي استطاعوا استخراجها بالتركيب الكيماوي . وليس من المستبعد كما قال الاستاذ هالدين ان تمكن من استخراج مقادير كبيرة من السكر بتأثير البكتيريا المجزئة للمواد الخيطية في نفايا الخضر . هذه بعض الأمثلة من تسلط الانسان على النبات والحيوان

وقد لخص جون رسل الناحية الغذائية في الخطاب الذي ألقاه أمام المجمع العلمي البريطاني بقوله : نجح العلم الحديث بمزيد قوة سلطة الانسان على الطبيعة حتى كثر الانتاج كثرة تربي عن حاجته فاضطر ان يتلف مقادير من محاصيل الحنطة والبن والقطن لأنها زادت عما يستطيع تصريفه في الاقطار الصناعية . فقد زاد محصول قصب السكر في جاڤا الهولاندية أربعة اضعاف وانخفض ثمن السكر في الهند الغربية وهدد صناعة هذا الصنف في بريطانيا العظمى وأشار اللورد Bledisloe الى بعض المشكلات الزراعية بالعبارة الآتية : —

إن حرق مقادير كبيرة من الحنطة في بعض مراكز هذا الصنف بسبب زيادتها عن الحاجة المطلوبة يحملنا على ان نفكر في تحديد زراعته كي لا يؤول طغيانهُ الى إفلاس الكثيرين من زراعه [2]

وظهر من الأرقام التي نشرها مجلس زراعة انكلترا بشأن الامبراطورية البريطانية وأوربا

---

(١) لفظة يونانية مركبة من لفظتين أيكس ومعناها البيت ولوجي العلم فيكون معناها الحرفي علم البيت ولم أجد لها مرادفاً عربياً فاخترت لفظة مساكنة للتعبير عنها

(٢) Twilight of Parenthood p. 9

وغيرها من الامصار ومن ضمنها الاوجتين والولايات المتحدة وسيبيريا واليابان والجزائر ان مجموع مساحات الخطة زاد بين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩١١ من ٣٠٠ر٩٣٠ر٠٠٠ كر الى ٤٧ر٠٠٠ر٠٠٠ أي زيادة ٢٣ بالمائة . وقال السر هنري رو ان هذه الزيادة تذير للانبياء ا (١)

وتتلخص طرق تحكم الانسان في الاحياء المساكنة له بما يلي : (١) السيطرة على العوامل الطبيعية التي تحدد مقدار الأنواع الصالحة لمنفعته ونوعها (٢) ابادة الأنواع التي تنازعه البقاء بالقضاء عليها مباشرة او بالواسطة (٣) انتخاب الانواع الصالحة له وتحسينها وفقاً لحاجته . فيدخل تحت العامل الأول مختلف المواد الكيماوية التي استنبطها الانسان لخصب الارض واشتعال الحرارة اللازمة لأنواع النباتات والحيوانات . ولا حاجة ان نتوسع في هذه في طرق الري وتحويل انهار فاتحة الى ارض خصبة وحدائق غناء . وقد توصل الى اختيار انواع النباتات والحيوانات . تقاوم الجفاف . وزيادة محصول الخطة في كندا وحدها حمل بعض العلماء على القول الآن : لا خطر على العالم من قلة الطعام لمدة قرن على الاقل اذا استمرت زيادة السكان بالمعدل الحاضر

ومن مستنبطات العلم الحديث خزن العلف الذي تقتات به المواشي كالحشيش الأخضر وما شبه دون ان يبرأ . وقد اكتشف الأستاذ مزو حديثاً ان تلف الحراج ناشيء عن الزنابير التي تضر اشجارها . وتعيش هذه الزنابير على ضرب من العفن (Fungi) يكسو الاشجار ولا ينمو العفن اذا كانت الاشجار في ارض جافة فتجفيف الماء من التراب يقضي على الزنابير ويحفظ الاشجار

(الاسمدة) اما الاسمدة الصناعية فقد تحدثنا عنها ولا حرج فالنيتروجين من العناصر الاساسية في الحيوان والنباتات . وقد زاد معدل مركباته بين سنة ١٩٠٣ ، ١٩٢٨ ثلاثة اضعاف وكان مصدرها الوحيد قبل سنة ١٩٠٣ المعادن التي في جوف الارض . وقد تنبأ بيرل Pearl عن قرب نفاد النيتروجين فلم يمض عشر سنوات على نبوءته حتى تمكن العلم من استخراجه من الهواء (٢) مباشرة ونصف مركباته تستخرج الآن من هذا المعين الذي لا ينضب . وقد تمكن الانسان من تحسين الاعشاب التي تقتات بها المواشي في المراعي والتفت الى ضرورة المواد غير العضوية للنباتات كالحديد والمنغنز والكلس (الجير) والبوتاس وغيرها فعالج فقر التفاح بالحديد مثلاً بشك مسامير الحديد في جذوع الشجر وزاد محصول الليمون باضافة البوتاس اليه . وتستعمل الاسمدة الكيماوية في اصناف الخضر والفواكه والبقول والحبوب فتأتي بالدهشات

(١) Population : Carr-Saunders p. 71
(٢) Twilight of Parenthood . p 137

﴿ الحرارة ﴾ وقد صنعوا سفوفاً من زجاج لزوائف الخازير تخترقها اشعة تحت البنفسجي لمقاومة داء الكساح الذي يصاب هذه الحيوانات وعوضوا نقص اليود في غذائها فزاد بتاجها زيادة كبيرة لانها حساسة جداً لنقص هذا المعدن وصنعوا بيوتاً زجاجية بوقاية مختلف البقول والحضر والعلف وغيرها مما يقتات به الانسان والحيوان . وتمكنوا بواسطة الحرارة الصناعية من انقاص غذاء الخازير ٢٠ بالمائة . وزادوا مسدل بيض الطيور بتعريضها للانوار الكهربائية . ويضيق بنا المقام اذا اردنا التوسع بهذه الناحية

﴿ ابادة الحشرات ﴾ لقد تمكن الانسان من القضاء على كثير من انواع الحشرات التي تفتك بالحبوب والخضر والفواكه وغيرها مما يقتات به الانسان فتحسنت زراعتها وزاد تاجها أضعاف الاضعاف. فقدقدروا الاضرار التي تصيب الزراعة من الاعشاب المضرة والرواشن فقط بـ ٢٥ بالمائة من محصولها فاستنبطوا طرقاً متعددة لتلافي تلك الاضرار اهمها اولاً ذر المساحيق الكيمياوية. ثانياً تسليط مضادات الحشرات التي تؤذي الزرع. وثالثاً توليد انواع من النباتات ذات مناعة خاصة ضد الامراض النباتية وامثلة ذلك القضاء على كثير من الحشرات التي تفتك بانواع البرتقال والعنب والتمر والقطن والحنطة وغيرها وقد قدر خسارة الاذرة الصفراء والقطن في الولايات المتحدة سنة ١٩٢١ بخمسمائة مليون دولار . وقد تمكن الدكتور سولمان من استنبات نوع من البطاطس منيع ضد الجراثيم التي تفتك به واستنبت غيره أنواعاً من الناكهة منيعة ضد أمراضها . وتمكنوا من تضريب الحنطة في السويد وتحسينها فزاد حاصلها ثلاثين بالمائة وتمكن سوندرس من توليد نوع حنطة يعطي حاصلاً بمدة ١٠٣ ايام

﴿ الناحية الاحيائية ﴾ لقد اعلن المشتغلون في المختبر الحيواني بجامعة انديانا سنة ١٩٣٤ انهم استطاعوا التحكم في نوع الشق (الجنس) وتمكنوا من زيادة نسبة الاناث بحقن الفسحات الهوائية بأعقاب البيض بمادة التايلين خلاصة البيض . وتمكن الباحث الروسي كولتسوف Koltsov من تفريق النطف المنوية التي تكوّن الانثى في الارانب عن التي تكوّن الذكر بواسطة الكهربائية وتزيد الاناث عن الذكور [1] ولا ندري ما يحمله الغد من عجائب العلم

وقد زادوا انتاج الحيوانات والطيور بتحسين نسلها والقضاء على الامراض التي تفتك بها كانواع الجراثيم والديدان وغيرها فزادت زيادة عظيمة

هذه نظرة عامة تريك ضعف النظرية المالثوسية وعدم انطباقها على البشر الذين يكيفون أنفسهم وفقاً للظروف ويتحكمون بمحيطهم كما يشاؤون فلا خوف على الانسان مهما قلت المواد الغذائية وتعقدت المشاكل الاجتماعية فانه واجد لنفسه مخرجاً

(١) Outposts of Science, 1935, p. 191 By Barnard Jaffe